العدد الثالث والعشرون
2006

مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة تصدر سنويا

1374 من وفاة الرسول ﷺ الموافق لعام 2006 مسيحي

د. مصطفى حنفي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية - تطوان - المغرب

تقديم:

نعتقد أنه قد يكون من المفيد تدشين القول في موضوع هذه الورقة الموسومة ـ باستراتيجية النقد ومستويات التفكير في مؤلف «الإسلام في تصورات الاستشراق الإسباني» للباحث المقتدر د. عبد الواحد العسري ـ ببيان المضمون العام لهذا العنوان وبالتالي تحديد معالم الإشكال الذي نروم طرحه ومناقشته.

وأول الخطو في هذا القصد هو أن مستند تفكيرنا في محاور هذا العمل ينطلق من اقتراح منهجي نعتقد أنه يمتلك قدراً واسعاً من الوجاهة النظرية في دائرة التأصيل الفلسفي المغربي للنظر النقدي في بنية الفكر الاستشراقي. ومفاده:

إن مؤرخ الفكر المهتم بمشاريع النظر الفلسفي في الكتابات الاستشراقية والمنشغل بمفاهيمها وقضاياها الكبرى وبالنقاش الدائر فيها وحولها. سيجد نفسه مضطراً إذا هو أراد أن يتعرف على أقوى لحظات الخصوبة النقدية التي تبرز جهود الباحثين المغاربة ممن نعاصرهم اليوم؛ وتقدم كتاباتهم جهداً جديداً ومتطوراً في باب المقاربة النقدية للسقف النظري في الاستشراق الإسباني وتفكيك المفاهيم المستعملة في نصوصه. إلى أن يلتمس لمداخله سنداً من أبحاث الكاتب عبد الواحد العسري الاستشراقية؛ ومن حواراته النقدية مع أسئلة هذا الاستشراق في المؤلف المحتفى بصدوره اليوم عن «مكتبة الملك عبد العزيز العامة» أفقاً نقدياً لخلخلة انسدادات الوعي الاستشراقي الإسباني وتهافت أطروحاته الاستعلائية الغربية.

ولمستوى الفحص والمعالجة هنا في هذا التأطير الافتراضي؛ وفي صياغة ما يسعف ببلورة استراتيجية النقد وطبقات التفكير في هذا المؤلف؛ أهمية فائقة نقف عندها على النحو التالي:

استراتيجية النقد ومحدوديته:

إذا جاز لنا أن نصدر حكماً حول منزلة النقد المحددة لفضاء الكتابة في مؤلف «الإسلام في تصورات الاستشراق الإسباني»[1] في منهجه ورؤيته؛ أمكن القول من دون تردد إن أهمية هذا النقد ليست لا نظرية خالصة ولا تقنية معرفية تخص عمليات إنتاج أو إعادة إنتاج الموضوع الاستشراقي. إن وجهته في الفكر والتفكير لا تخرج عن الإشكاليات الكبرى في الفكر العربي المعاصر؛ حيث يستمر التفكير في إشكالية الإسلام والغرب وفي صيغ التقابل والتجافي المترسبة بلغة العداء المتبادل في بنية العلاقة القائمة بينهما؛ لدعم اختيارات ونبذ أخرى بغض النظر عن زمن التمثيل ومناسبته. ذلك ما يؤكده الباحث ويكشف الغطاء

(1) محمد عبد الواحد العسري: «الإسلام في تصورات الاستشراق الإسباني، من ريموندس إلى آسين بلاسيوس»، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض 2003.

عنه بأكثر من صيغة وبشكل متواتر طيلة صفحات المقدمة معلناً. «جاءت حرب الخليج الثانية لتستثير كل المخاوف والتوجسات التي تجمع بصفة تقليدية بين ما اصطلح عليه الإسلام والغرب؛ وجميع ما يترتب عن ذلك من تصورات للغرب حول الشرق وللشرق حول الغرب. ثم انضاف إلى ما ترتب عن هذه الحرب من خرائط جديدة للعالم تنامي اهتمام الفكر الغربي بالإسلام؛ حيث سيتابع فوكو ياما دراساته المشهورة حول نهاية التاريخ؛ وسيستمر صمويل هنتغتون في صقل أطروحته المشهورة كذلك عن صدام الحضارات»[2]. ثم يضيف معلقاً ـ ولعل هذا ما يفسر مختلف أشكال العنف المتعددة التي يمارسها الغرب اليوم تجاه العرب والمسلمين وما تلوكه الألسنة والأقلام والصور الغربية في إعلامها المتعدد والمختلف والمتنوع من أحكام مسبقة عن أولئك وهؤلاء؛ ومن تصورات مغلوطة ومتهافتة عنهما كذلك. وإزاء هذه الوضعية كان لا بد لنا من أن نتساءل عن أسبابها ودواعيها الرئيسية»[3] ونحن هنا لا نجد حرجاً إذا ما قلنا ـ ولا بأس ما قد يثيره القول منا في مثل هذه المناسبة من فضول ـ إن عناية المؤلف بموضوعه من خلال استدلال يعتمد تاريخ تكون صيرورة معقدة؛ تتداخل فيها عوامل تاريخية دينية وسياسية مركبة ومتناقضة؛ تنبئ عن وضوح الرؤية أنه صاحب قضية لا يعتقد بمجانية الفكر ولا بتعاليه عن التاريخ. فالأفكار في نظره محايثة للزمان في مستوياته وأبعاده المختلفة. وخلفه يحتمي الكاتب بمنطق المكر التاريخي الذي ينتبه إلى موقع الأقدام. يعلن عنه أولاً؛ ثم يفكر فيه وبوحي منه ثانياً؛ في اتجاه إعادة صياغة المقدمات التي ينطلق منها داخل دائرة صيرورة الاستشراق الذي يحوله إلى جذر ثقافي آخر للصراع.

ففي هذه المقدمات نجد الباحث يدشن مجالاً آخر للسؤال يستشعره كل من يقرأ النص بترو:

«ولقد كان من البداية أن نتساءل كذلك عن مختلف الأدوار التي يمكن أن

(2) المصدر نفسه، ص14 ـ 15.

(3) المصدر نفسه، ص15.

يكون قد لعبها الاستشراق في هذه الخصومة بين الغرب والإسلام. هل عمل على تأجيجها؟. أم اكتفى بالتعبير عنها؟. هل ساهم في إدارتها وتدبير شؤونها؟ أم اكتفى بالاستجابة إليها وإلى مقتضياتها وضروراتها التاريخية؟. ومهما يكن من أمر فلقد بدا لنا بأن الاستشراق لم يتخلف أبداً عن هذا الأمر ولم يبتعد عنه قط»[4].

إنه نص يتجه إلى محاصرة أوجه متعددة من المقال الاستشراقي المعبر عن جدل الصراع بين الغرب والإسلام موضحاً دوره الوسيط في لحم آليات العنف النظري. عنف الخطاب وخطاب العنف تحت تأثير هواجس عدوانية يحضر فيها السقف العقائدي؛ والتنميط الثقافي الذي يعلب الأفكار؛ أكثر ممّا يحرِّضُ الهاجس المعرفي المفتوح.

توجه المقدمات الآنفة الذكر إذن استراتيجية النقد والاستدلال في الكتاب؛ وتساهم في تأسيس جدل عقلاني يتوخى تفكيك الانشطار والتمزق الحاصل في بنية المقال الاستشراقي. إلا أن الكاتب في مستوى سياق التمثيل ومعطياته؛ وفي حكمه على هذا الاستشراق المخاصم؛ لا يقرأ تحولات القيم التي يستبطنها الغرب في تعدديته داخل دائرة هذا الخطاب في التاريخ والثقافة والسياسة؛ وفي ضوء المغايرة التاريخية المميزة لتاريخه وصيرورته. بل إنه يكتفي بالتلميح والإشارة على طريق الوضوح المنهجي الذي يفضي به صوب هدف معلن يصرح بوجهة دراسته للخطاب الاستشراقي؛ ويحدده في الاستشراق الإسباني. يستثمره ليوسعه ويؤصله؛ وليؤصل بواسطته حقل الدراسات الاستشراقية. يكتب في هذا السياق قائلاً: «ورغم إدراكنا بأن الاستشراق الذي يواكب حالياً الخصومة المذكورة ويعبر عنها خير تعبير هو الاستشراق الأميركي والأنجلوسكسوني. فلقد انصرف جهدنا إلى البحث في الاستشراق الإسباني ودراسته». ـ ثم يؤكد ثانياً «ينضاف إلى ذلك العمق التاريخي للاستشراق الإسباني الذي نعده من جهتنا استشراقاً رائداً من الناحية التاريخية والمعرفية

(4) المصدر نفسه، ص16.

للاستشراقات الأخرى[5] يتعلق الأمر إذن ببحث يتوخى غاية معرفية تاريخية. . وفي سبيل هذه الغاية يقارب صاحبه بكثير من الشغف العلمي نصوصاً ومفاهيم محددة تتيح له صياغة استراتيجية الأسئلة الكبرى التي تنفتح على طرق وأساليب المقاربة النقدية والتقصي الإبستمولوجي. وهي فيما نزعم استراتيجية طويلة النفس ترمي إلى خلخلة سواكن سؤال الاستشراق وأنماط التفكير المهيمنة فيه وعليه. . ولم يكن هذا الأمر سهلاً ولا متيسراً على الباحث بل إنه اختار في معاينة هذا العمل إعادة طرح سؤال الاستشراق من زاويتين رئيسيتين: زاوية العناية بموضوع السؤال ومجالات بحثه؛ بهدف إبراز حدود المجال وآفاقه. مجال زمني موصول بنشأة مصطلح الاستشراق ومركزيته الغربية[6]. ومجال نصي موصول بجيل المستشرقين والباحثين الذين ساهموا في الإنتاج النظري المرتبط بفضاء الكتابة الاستشراقية وبأنماطها وبطريقة البناء فيها. حيث يعاين الباحث عبد الواحد العسري مجموعة من التعاريفِ التي تتقاطع فيها لغة تركيب التصور العام لموضوع الاستشراق في مستويات تمظهره وحضوره النصي. تعريفه من جهة مضمونه أو محتوى مادته «بوصفه طلباً غربياً للشرق»[7]. وهذا منحاه خطابات المستشرقين. أو تحديده من جهة منطق اشتغاله في تحقيق هذا الطلب والتعامل معه «بوصفه منهجاً شغله المستشرقون على مادة معرفتهم التي هي الشرق»[8]. وهذا منحاه نقد نظام الخطاب الاستشراقي في تمثله لمناهجه ومفاهيمه في التحليل.

إن هذه الأوليات التي توجه استراتيجية النقد في النظر إلى سؤال الاستشراق؛ تجد تبريرها الكافي والبرهنة عليها في مداخل الكتاب عندما يتجه الباحث عبد الواحد العسري بنظره الفاحص إلى الزاوية الثانية الموصولة بأنظمة الكتابات الاستشراقية. وهي تقدم في نظرنا وجهاً آخر من أوجه طموح الباحث

(5) المصدر نفسه، ص16.
(6) يراجع المدخل الأول من الكتاب: كيف نقرأ الاستشراق والاستشراق الإسباني، ص30.
(7) المصدر نفسه، ص32.
(8) المصدر نفسه، ص33.

إلى محاصرة حقل الدراسات الاستشراقية كما تبلورت في المجال العربي الإسلامي الحديث والمعاصر وكما رسختها تقاليد البحث المنهجي التي تسندها وتدور في فلكها. تتضح لنا صورة هذه المحاصرة في خطاطة التصنيف التي حاول من خلالها الباحث أن يركب كم الإنتاج الشرقي في إنجاز أبحاث حول الاستشراق؛ وحول مرجعياته وأهدافه ومناهجه؛ وأن يفتح في الآن نفسه دوائر النظر الشرقي في التاريخ والكتابة الاستشراقيين على أسئلة ومقاربات جديدة. وهو ما نتبينه بعبارات مكثفة في قوله: «أما الشرقيون منهم فبالإضافة إلى ما ذكرناه في معرض الحديث عن تعريف الاستشراق فإن معالجتهم لهذا الحقل المعرفي قد اندرجت ضمن اتجاهات ثلاثة رئيسية. أولها لم يتجاوز عتبة الوصف والتجميع المعجمي ذي الطابع التعريفي والمدرسي. وثانيهما حصر نفسه ضمن رؤية تقريظية للمستشرقين ولمجهوداتهم في خدمة التراث الإسلامي التي لا يمكن إنكارها أو تجاهلها. وثالثها الذي استقطب في الواقع أغلبها، ردُّ مجموعة الجهد الاستشراقي إلى أهواء المستشرقين ورغباتهم وميولهم المتربصة بالإسلام والمسلمين. انطلاقاً من مواقع ملية وانتماءات عقدية واضحة؛ فتوفق في إبراز بعض تلك الأهواء وهذه الرغبات مثلما توفق كذلك في بلورة ردود فعل انفعالية ضد المستشرقين واستشراقهم واستنساخها»[9]. إلا أن إعلان الباحث لهذه المواقف لا يثنيه عن انتزاع النتيجة الصريحة التي يكتفي فيها بالتلميح الدال قائلاً: «غير أن مثل هذه الدراسات لم تستطع أن تشكل أي قلق معقول للمستشرقين ما دامت لم ترق إلى مستوى تأزيم إنتاجهم. فلم ينتبه إليها أحد منهم؛ بل لعلها قد ساهمت في تعزيز بعض مشاعر التفوق ونزعات الاستعلاء لديهم»[10] أثبتنا هذا النص على طوله؛ ليس فقط لقناعتنا المنهجية بوعي صاحبه بعنف لغة التراث في مجابهة مادية ودنيوية الخطاب الاستشراقي. العنف الذي يتغذى من عنف الصراع التاريخي الطويل الذي أحدثه الغرب الاستعماري والتغريب القسري. بل لاقتناعنا كذلك بما يروم تدشينه المؤلف من مجالات

(9) المصدر نفسه، ص36 ـ 37.

(10) المصدر نفسه، ص38.

أخرى للسؤال تقف خلف النماذج النصية المستعرضة؛ وتحيل إلى ما يسمح بمقاربة الثقافات والهويات بتمثل منظور النقد والحس التاريخي. التمثل الذي يتحصن باختيار النقد الذي دشنه إدوارد سعيد؛ ودعمته اجتهادات المثقفين العرب المعاصرين بكثير من الجرأة لمصلحة منهجية في الفهم والتحليل يعلن المؤلف أنها المنهجية الأكثر ملاءمة في معالجة الاستشراق الإسباني.

وتحقيقاً لهذا المطلب يقوم الباحث بصياغة السؤال الذي يوجه استراتيجية النقد في أطروحته ويهبها كامل قوتها ونجاعتها النظرية. يتساءل: «هل مجرد انتمائنا إلى الثقافة الإسلامية الذي يوفر لنا بالضرورة معرفة وخبرة بها قد تضيقان وتتسعان يجعلنا مسلحين بالكفاية الضرورية لنقد الاستشراق»[11]. ويأتي الجواب «كلا. فالواقع أن ذاك الانتماء وتلك المعرفة وهذه الخبرة لن يسعفانا إلا في اكتشاف بعض أخطاء هذا المستشرق أو ذاك عند قراءته لكلمة؛ أو سبره لمعنى وتخريجه؛ أو في رد أحكامه ورفضها وما هو من هذا القبيل. ومعلوم أن تتبع هذا الضرب من الزلات والهنات والسقطات محدود الإنتاجية ولن ينفعنا كثيراً في النظر إلى الاستشراق بوصفه منهجاً. فليس الهدف من هذا البحث أن نواجه الهوية الاستشراقية الغربية بالهوية الإسلامية الشرقية. ولا نروم به كذلك تغذية خطابات الرفض والحقد والكره التي تنظم علاقات الشرق بالغرب وتديرها؛ والتي كثيراً ما يقع في مطباتها كثير من دارسي الاستشراق من الشرقيين»[12].

تتجمع هذه الأفكار؛ الفكرة تلو الفكرة؛ والمقدمة تلو المقدمة؛ وتتضافر مجتمعة لتؤلف في صفحات مطولة مقالة في المنهج تحاور دروس الفلسفة الغربية المعاصرة؛ ومناهج العلوم الإنسانية في أوثق صورها ارتباطاً بمفاهيم الدرس الانتربولوجي البنيوي؛ وانفتاحاً على النص الفوكوي؛ والنقد الجذري النيتشوي؛ وذلك في أفق تطويعها وتوطينها داخل المتن الاستشراقي الإسباني موضوع الكتاب. إن تماهي الباحث مع الحداثة النقدية الغربية باعتبارها جملة

(11) المصدر نفسه، ص40.

(12) المصدر نفسه، ص41.

من المكاسب العلمية والمنهجية التي تخصنا ومطالبون باستيعابها في مسألة الموقف من تصورات الغرب التقليدية من؛ التاريخ الكوني وتاريخ الأفكار والحضارات والثقافات الغيرية؛ تحت غطاء المركزية الغربية وبكل الخلفيات التي تتحكم فيها وتوجهها؛ هو في تقدير صاحبه ضرورة من ضرورات المنهج في مجال تشخيص عمليات التركيب التاريخي والنصي الناظمة لثقافة التخييل والسرد والكتابة الاستشراقية؛ في جوانب قوتها ومركزيتها الثقافية الغربية؛ وفي مناحي ضعفها وقصورها في حال من الانغلاق على الذات طوراً ورفض الآخر طوراً آخر[13]. . ورغم أن الباحث لا يستثني جهود إدوارد سعيد في تطوير مباحث الحفريات البنيوية في المفاهيم الاستشراقية في علاقاتها المركبة بالسلطة والسياسة والتاريخ؛ فإنه يؤكد على أن الموقف المطلوب في هذا الباب هو تحويلها إلى أدوات نقدية مساعدة على إدراك أفضل لمكونات هذه العلاقة وتوظيفها على حد تعبيره «في معالجتنا لشرقنة استشراقنا الإسباني لشرقه الخاص»[14]. الأمر الذي نعتبره مزية من مزايا هذا البحث في إنجاز ما يسمح بتقليص مساحة الجدل المفترضة بين الاستشراق المتعارف عليه في تاريخه العام؛ وبين نظيره الإسباني وقد تحصن بماضيه التاريخي وبهويته الإسبانية في تعقل مكوناته ولحم انكساراته. ولأن مسعى الباحث يتمثل في إعادة بناء مكونات هذا الاستشراق الإسباني في فعله وانفعاله مع الأغيار؛ وفي تركيبه إنشاءَه للتعبير عن هويته الإسبانية؛ فإنه يلجأ في سياق عملية العرض والبرهنة؛ وفي عينات النماذج المنتقاة؛ إلى إنجاز تمارين في التأمل المستوعب لحصيلة كيفيات النظر الاستشراقي الإسباني؛ وتعييناته الوصفية في إثبات الهوية الذاتية في التاريخ والثقافة. وقد فكر الباحث في المكونات المرتبطة بإثبات هذه الهوية من خلال آليتين استشراقيتين هما: آليَّتا الاستيعاب والإلحاق. استيعاب الذات في الموضوع؛ وإلحاق الذات بالموضوع[15]. وذلك انطلاقاً من تسليمه بأن

(13) يتعلق الأمر هنا بصورة الآخر في نصوص الاستشراق الإسباني. يراجع الفقرة الرابعة، ص53.
(14) انظر توضيحاً لذلك في ص52.
(15) يراجع ص55، في المصدر نفسه.

أنماط التشكل وإعادة التشكل التاريخي التي اتخذتها علاقة الهوية بالغيرية في نصوص ومقدمات الاستشراق الإسباني؛ اتخذت لها مرجعية دينية زاوجت فيها بين المعتقد النصراني والمكون الإسلامي في وجهه الفكري وفي صورته الأندلسية بوصفه حسب تعبير الباحث «جزءاً لا يتجزأ من تاريخ الفكر الإسباني ولحظة من لحظات توهجه العام»[16]. وتحديداً توجيه صيرورة الإنتاج العربي الإسلامي بالأندلس ومجال النظر الفكري فيه؛ من ابن حزم إلى ابن العربي المرسى مروراً بابن طفيل وابن رشد وابن باجة؛ نحو أفق سيادة الإبستيمي اللاهوتي الإسباني بكل أولياته، وبكل تجارب المثاقفة التاريخية العسيرة المتعددة فيه؛ التي تغذي مباحث وتأملات الاستشراق الإسباني؛ وتساهم في بلورة لغة الهوية الثقافية الإسبانية. نقول هذا ونحن نستحضر أوراق الباحث في مقدماته المنهجية من حيث الأوليات المفهومية التي فكر بواسطتها؛ ومن خلالها في هوية الاستشراق الإسباني؛ وفي توضيح جوانب النظر النقدي في الفكر الغربي المعاصر من إشكاليات الهوية والاختلاف[17]. ونرتفع بفهمنا لها ونحن نتابع درجات تطور الوعي المنهجي لدى الباحث في تأصيل أوليات الاستشراق الإسباني ومجاله المدروس، تأصيل يرمي إلى هدف نقدي كبير هو خلخلة نمط الكتابة الإسبانية وتكسير قوالبها المتدثرة أحياناً بلبوس الاستعراب الإسباني في تقطيعه التاريخي المختزل للثقافة العربية الإسلامية بالأندلس وفصلها عن لحمتها الشرقية؛ أو بعباءة الاستفراق أحايين أخرى في لحظات توهجه طلباً لأفريقيا وللتاريخ الثقافي المغربي الأفريقي[18]. ولا يغيب عنا شيء منها ونحن نقف على تسلح الباحث برؤية نقدية تنفتح على تعددية المكتوب الاستشراقي الذي لا يرى في الاستعراب أو الاستفراق الإسبانيين «مجرد مواقف ومضامين وأهداف»[19] أي

---

(16) انظر توضيح هذه المسألة في ص54.

(17) حول علاقة الاستشراق الإسباني بإشكالية الهوية والاختلاف، يراجع الفقرة الخامسة، ص56 وما بعدها.

(18) انظر تفاصيل حول دلالات هذه المفاهيم في صفحات المدخل الثاني، ص65 وما بعدها.

(19) انظر توضيحاً لهذا الفصل المصطنع في ص75 وما بعدها.

لمزيد من التفاصيل يراجع ملف: دفاتر أندلسية، مجلة الكرمل العدد 12/ السنة 1984.

مجرد نص إسباني يتضاعف داخل السياق التاريخي والثقافي العربي المحلي أو الأفريقي الذي يستعيده ويحتويه في غيريته عبر أزمنة تشكله التاريخي؛ بل تأويلاً في ملمحه الجزئي وبكفاءته الإنشائية القوية؛ تربطه بالثقافة الغربية التي ينتمي إليها مصادرة التماثل الضمنية الماثلة في المنهجية الاستشراقية. وذلك هو حضور الاستشراق الإسباني وإعلانه عن نفسه في كل خطوة وفكرة. وترجمة ذلك نلمسها بوجه لا ننكر فيه على المؤلف استنتاجه في القول: «أفلا يحق لنا أن نرى في كليهما ـ أي في كل من الاستعراب والاستفراق ـ مجرد تمظهرات للاستشراق؛ وإنجازات من إنجازاته. بلى»[20]. ونلمسها؛ بوجه آخر أكثر وعياً بما يحجبه هذا القول ويضمره؛ في قسمة الباحث للعام والخاص بحسب ما يظهر من وجوه الصلة؛ ويلتقي أو يفترق مع مقتضيات الموضوع. ذلك ما يستدركه الباحث على نفسه ويصرح به في حينه من غير مواربة «غير أنه لكي نتفادى كل شكل من أشكال التعميم والاختزال في هذا الجواب ننبه على أن التمظهرات المعنية هي تمظهرات إسبانية؛ وكذلك الإنجازات فهي إسبانية كذلك. وفي ذلك تكمن خصوصيات الاستشراق الإسباني في تجلياته الاستعرابية والاستفراقية»[21].

وهكذا فعندما يتحدث الكاتب عبد الواحد العسري عن هوية الاستشراق الإسباني في مضمونه العام الذي يحمله مفهوم «الخصوصية الإسبانية» فيه؛ فإنه يتحدث عن حقل معرفي جديد يرتبط كما أسلفنا القول بالحركة الاستشراقية ويشكل أحد مظاهرها وتجلياتها. وبما أن هذا الاستشراق لم تعرفه جميع الأقطار الأوروبية الأخرى في وقت واحد؛ ولا على صورة واحدة؛ وبما أن التباين في هذا المجال كان أوضح ما يكون بين حال إسبانيا وحال العالم الأنجلوسكسوني أو الأقطار الأوروبية؛ فإنه من المنتظر في تقدير الباحث؛ وهذا ما حصل فعلاً؛ أن يختلف المظهر الذي ظهر به «الاستشراق الإسباني» في إسبانيا عنه في الأقطار الأخرى. هذه واحدة.

---

(20) المصدر نفسه، ص68.

(21) نفس المصدر ونفس الصفحة 86.

أما الثانية؛ فإن مفهوم الاستشراق الإسباني الذي اجتهد الباحث في نحته وصياغته هنا فهو؛ فيما يخيل لصاحبه؛ متحرر إلى حد كبير من ثقل المفاهيم الأخرى المتاخمة له من قبيل؛ الاستعراب أو الاستفراق. فهو من هذه الناحية أقل انغماساً في الإيديولوجيا بالمعنى الذي يوقعه تحت تأثير صيغة من صيغ التبشير بالتأندلس الثقافي العربي أو المعرفة الاستفراقية التي لا حاجة له بها هنا.

وهكذا فإذا نحن أردنا الآن أن نقرأ هذا التمييز الذي تؤسسه مداخل الكتاب في ضوء استراتيجية النقد التي سعى الباحث إلى بلورة خطاطتها المنهجية؛ أمكن القول: إن هذا التمييز يفعل في بناء المداخل المنهجية والتاريخية للكتاب فعل العامل الحاسم المحدد. إنه إذ يساهم في وضع مفهوم الاستشراق الإسباني أمام محك النقد المعرفي؛ ويتيح بواسطة هذا النقد زحزحة بارزة في العناصر المكونة للمفهوم من أجل الانتقال به وبموضوعه؛ من مستوى الصمت والمراوغة؛ إلى مستوى التعقل والفهم؛ فإنه يفسح المجال؛ منهجياً؛ لإبراز ما هو «خاص» داخل ما هو «عام»؛ وبالتالي إلى التمكن من محاصرته وتحليله. بل إن هذا التمييز نفسه يجعلنا نتبين في مفهوم الاستشراق جانب الخاص فيه؛ الجانب الذي نفترض أن التفكير فيه سيتيح للباحث توسيع دائرة إجرائيته وبناء تصوراته وأسئلته على متن مسكون بالسؤال؛ مسكون باستراتيجية الاستفهام المتواصل.

تجتمع هذه المقدمات إذن؛ لتؤلف بصفحاتها التي تقترب من مائة صفحة فضاء للنقد المؤسس على عقلانية الحداثة المعاصرة؛ ولترسم بجوارها وبوحي منها طريقة الباحث في بناء فصول الكتاب؛ وطريقته في الاستدلال واستخلاص الأحكام والنتائج في سياق تشكل المتن. وهي في تتابعها وفي تقسيماتها وتفاصيلها؛ تندرج ضمن صيرورة أفكار المؤلف من جهة؛ وطبقات التفكير المتبلورة في نصوص الكتاب من جهة أخرى. وهذا ما سينصرف باهتمامنا إليه الآن.

بنية الكتاب وطبقات التفكير:

لنسجل أولاً أن الكاتب عبد الواحد العسري يقسم عمله إلى ثلاثة أبواب وخاتمة: باب أول يتناول فيه ما أطلق عليه «تأسيس الاستشراق الإسباني وتصوراته: البدايات والروافد». وقد فكر الباحث في المعطيات المرتبطة بهذه البدايات من خلال ثلاثة فصول رئيسية هي: «البدايات الأولى للترجمة»[22]؛ «المجادلة النصرانية للإسلام من خلال رسالة عبد المسيح بن إسحاق الكندي»[23]؛ ثم «التنصير والدفاع عن النصرانية من خلال مشاريع رامون لول ورامون مارتي»[24]؛ ليخلص إلى الفصل الرابع: «الانقلاب الديني أو كيف تتحول الهوية إلى غيرية؟» أما الباب الثاني والمعنون: «الاستشراق الإسباني فيما بين عصر النهضة ونهاية القرن التاسع عشر»[25]. فقد ضمنه الكاتب فصلين. مستوى أول يتحدث فيه عن: «انحصار الدراسات الإسلامية عن إسبانية وانبعاثها من جديد»[26]. مستوى ثان يعرض فيه «لتأسيس الاستشراق في إسبانية خلال القرن التاسع عشر»[27]. وقد جاءت حصيلة هذا الباب في فصوله الكبرى قراءة نقدية في جدلية علاقة الاستشراق الإسباني بتاريخه العام. وهي قراءة نعتقد أنها لامست بقوة أسئلة وقضايا هامة؛ في موضوعات تتعلق بسيرورة الزمن التاريخي؛ والعقائدي؛ والفكري في التاريخ الإسباني على امتداد المسافات التاريخية الفاصلة بين القرن السادس عشر؛ والقرن الثامن عشر. وعلى الرغم من أنها جاءت في صيغ مكثفة ومختزلة في هذا الباب؛ فإنها استطاعت أن تكشف عن جوانب نقدية في تأويل الكاتب لدلالة انحصار الاهتمام الإسباني المعرفي بالإسلام في هذه المرحلة من تاريخه؛ ومغزى القيمة المعرفية والثقافية

---

(22) المصدر نفسه، ص117.

(23) المصدر نفسه، ص131.

(24) المصدر نفسه، ص155.

(25) المصدر نفسه، ص177.

(26) المصدر نفسه، ص219.

(27) المصدر نفسه، ص235.

التي تبلور في إطارها انبعاث الاستشراق الإسباني وانتظامه في أفق ماضيه التراثي العربي الإسلامي.

وأما الباب الثالث الموسوم: «الإسلام والفكر الإسلامي في تصورات آسين بلاسيوس»[28]. فقد أدار متنه المؤلف حول ثلاثة فصول ناظمة تسمح بصياغة أبعاد وجوانب الهدف المعلن عنه. وقد قدمه في صورة العمل على ثلاث واجهات:

الواجهة الأولى، هي واجهة التعريف بمنزلة المستشرق آسين بلاسيوس في التاريخ المعاصر للاستشراق الإسباني والاستشراق العالمي. وهذا مداره الفصل الأول[29] من هذا الباب. وقد كانت له نتائج هامة في مستوى إدراج اجتهادات آسين بلاسيوس؛ تنقيباً؛ وبحثاً؛ وتصنيفاً؛ ودرساً؛ ثم تأليفاً؛ وتحليلاً؛ لأهم المصادر العربية الإسلامية؛ وكشف خباياها في سياق إعادة تأصيل الاستشراق الإسباني بمختلف تموجاته.

الواجهة الثانية؛ وتتعلق بمعاينة عينات من النصوص الاستشراقية المبلورة لتصورات هذا المستشرق في عملية إعادة تركيب الصورة الثقافية للهوية الإسبانية المستوعبة لتراثها الفكري الأندلسي؛ وآليات تحوله عبر الزمان والمكان. وهذا مداره في تقسيم الباحث؛ الفصل الثاني. وقد جاء عنوانه: «بدايات الفكر الفلسفي الأندلسي في تصورات آسين بلاسيوس»[30]. ونحن نشير هنا إلى أن الجهد المبذول في هذا الفصل؛ يتمثل في المنحى التمثيلي الذي يركز فيه الباحث على نموذج ابن مسرة ومدرسته الفكرية بالأندلس؛ جاعلاً منه نقطة إسناد تستغرق في تقدير الباحث عناصر التفكير الاستشراقي الإسباني في بناء آسين بلاسيوس لأطروحته الأساس في الإسلام والفكر الإسلامي. ونحن نقف؛ في سياق التحليل والتمثيل؛ على خاصيتين أساسيتين في هذا الفصل: خاصية البحث؛ وخاصية التأويل. تستند الأولى؛ إلى رصيد تراثي مهم من المعطيات

(28) المصدر نفسه، ص269.

(29) المصدر نفسه، ص271.

(30) المصدر نفسه، ص317.

النصية؛ والمعطيات التاريخية؛ توضح في نظر الباحث تعامل الاستشراق الإسباني في وجهه البلاسيوسي مع الفكر المسري الإسلامي الأندلسي؛ وتطل منه؛ ومن خلاله؛ على الإسلام والثقافة الإسلامية.

أما الخاصية الثانية؛ خاصية التأويل؛ فتتمثل في الوعي النقدي الذي يقرأ به الباحث عبد الواحد العسري بنية التكوين النصي الاستشراقي لآسين بلاسيوس؛ وأشكال المخاتلة التاريخية والمعرفية التي مكنته من محاصرة الأصول والمرجعيات في أفق إعادة ابن مسرة؛ وتراثه الفلسفي الإسلامي المهرطق؛ إلى دائرة التقليد الفكري النصراني الأندلسي من وجه أول؛ وإلى زمن التاريخ الغربي من وجه ثان.

وأما الواجهة الثالثة؛ فتأخذ على عاتقها مواجهة هذا التأويل؛ وقد استوى في أبحاث ومشاريع آسين بلاسيوس الاستشراقية؛ والتي يعقد لها الباحث الفصل الأخير من الباب الثالث بعنوان: «العلاقات المتبادلة بين التصوف الإسباني والتصوف النصراني في تصورات آسين بلاسيوس»[31]. وقد لا نجانب الصواب؛ إذا ما قلنا إن المؤلف في هذا الفصل؛ يستنفر مجموع أدواته النقدية؛ في التحليل والتوثيق؛ وفي التلميح والإشارة؛ وفي الاستدلال؛ لتوصيف آثار بلاسيوس وهندسته في التأليف والمماثلة بين مرجعيات التصوف الشاذلي الإسلامي والتصوف النصراني. وقد استعمل الباحث معطيات هذا الفصل بغية إصابة هدفين اثنين:

تمحيص فرضية التأثير النصراني في المدونات الصوفية الإسلامية؛ إبراز الأصول النصرانية للتصوف الإسلامي؛ بالمعنى الذي يرادفه فيه آسين بلاسيوس بالروحانيات الإسلامية عندما يكتب في لغة تبشيرية أنها «لم تستوف حقها من البحث؛ مثلما أنه لم يتم التأكيد عليها بما فيه الكفاية على دورها في هذا الإطار... ودورها في تفسير الروحانيات الإسلامية»[32]. وهنا يقوم الباحث

(31) المصدر نفسه، ص342.

(32) المصدر نفسه، ص348.

بعمل تحليلي لسجلات الأبحاث والنصوص التي راكمتها اجتهادات آسين بلاسيوس الاستشراقية في باب الاستدلال على تأثير «الأفكار والممارسات الروحية للرهبانية النصرانية الشرقية في متصوفة الإسلام»[33]؛ وتواصل حضور أطياف المقدس النصراني في التاريخ الإسلامي المنصرن للتصوف الشاذلي. وفي سبيل هذه الغاية يحدد الباحث ترابط هذين الهدفين في إطار الرؤية الاستشراقية الفليلوجية النزعة لآسين بلاسيوس. هذه الرؤية التي شكلت المسعى النظري البعيد لصاحبها وهو يقارن طوراً بين التصوف الإسلامي الشاذلي المتمثل في أصوله الجنينية الأولى عند كل من ابن العريف وابن عربي وفي رواده ومؤسسيه ومن اتبعوه؛ من أمثال أبي الحسن الشاذلي وابن عطاء الله السكندري؛ وابن عباد الروندي وغيرهما»[34]. وبين التصوف النصراني الإسباني الصحيح المعبر عنه في المدرسة الكرملية مع سانتا تريسا؛ وسان خوان دي لا كروث؛ والتصوف النصراني المنحرف؛ أو الإشراقي المهرطق المعبر عنه مع جماعة لوس ألمبرادوس[35]. ويقرن دعوته طوراً آخر بتجارب مماثلة في الرياضة الدينية الخلقية المسنودة بلغة الأذكار واللطائف وبالإشارات اللطيفة؛ ومقام التخلق والكرامة الجامعة؛ بين الإسلام والنصرانية. ثم يمنح حقل الاستشراق الإسباني بهذه الدعوى؛ طوراً ثالثاً؛ امتياز تأثير عقائد التصوف النصراني المتخفية؛ تاريخاً وأفكاراً وممارسة؛ عبر تفاعل الأخذ والعطاء؛ في غيريتها الإسلامية[36].

هم فلولوجي؟ وفي أحسن الأحوال: هم استشراقي؟

ليكن. ولكن المهم بالنسبة للباحث ليس تلطيف هذا الحكم أو عدم تلطيفه؛ فهو يدرك تمام الإدراك أن المسافة الممتدة من رايموندس يوليوس إلى آسين بلاسيوس «لم يكف هذا الاستشراق عن اجترار نفس تصوراته للإسلام

(33) ن. ص348,.
(34) المصدر نفسه، ص358.
(35) ن. ص358,.
(36) المصدر نفسه، ص364.

وعن إخضاع هذا الموضوع إلى نفس طرائق ومناهج البحث فيه والنظر إليه»[37].
بل إن ما يريد أن يقرره هو أنه ليس هناك البتة هم آخر في هذا الاستشراق الإسباني غير «الاستدلال على أطروحته المركزية في الإسلام؛ التي يذهب فيها أن هذا الدين ليس أكثر من دعوة محمدية انطلقت من أصول توراتية وإنجيلية صحيحة ومحرفة. . . . لتسويغ أخذ النصرانية من الإسلام تارة؛ ولتحميله مسؤولية تحريفها تارة أخرى؛ ضمن هاجس تأسيس الذات الإسبانية النصرانية؛ وخطابها عن هويتها»[38]. وهو استدلال مركز على مسألة واحدة هي: «تمحيص الأصيل من الهجين في هذه الذات؛ وضبط الصحيح من المنحرف منها كذلك»[39].

نحن إذن في النهاية أمام دربين يوصل أحدهما إلى الآخر: فيلولوجي مقارن يتوسل إلى غايته؛ في منطوق خطاب الاستشراقي الإسباني؛ بالنمذجة الوضعية التي ترد الفروع إلى الأصول؛ والأجزاء إلى الكل؛ وقد تبلورت في أبنية جزئية هي: العرفان والكلام. واستشراقي تتضاعف فيلولوجيته في ثنايا هذا الخطاب؛ بسقف الدفاع عن الاستمرارية التاريخية الحافظة لنقاء هوية ضدية متخيلة؛ عبر أزمنة تشكلها المتواصلة في محيط الثقافة الغربية منذ القرون الوسطى. فهل كان الأمر غير ذلك في النتاج الفكري للاستشراق الإسباني المعاصر بعد رحيل عمدته آسين بلاسيوس؟ هل كان من شأن الاختلاف في الأطوار التاريخية؛ وحصول التحولات الفكرية والسياسية الكبرى التي عرفها العالم الغربي؛ أن تغير من شروط إخصاب حقل الدراسات الاستشراقية الإسبانية؟ ومن تصلب الصورة النمطية للآخر الإسلامي في فكر المستشرقين الإسبان؟

ويأتي الجواب في الخاتمة؛ وفي عينات الشواهد النصية المنتقاة؛ لتصادر على المطلوب؛ ولتظهر فيه وتتضح محدودية الاستشراق الإسباني، والحصر

---

(37) المصدر نفسه، ص368.
(38) المصدر نفسه، ص365.
(39) ن. ص365,.

المضروب على فكر المستشرقين الإسبان المعاصرين. الحصر الذي لا يملك الباحث أن يجد له في الحكم على المادة المعروضة تبديلاً ولا تحويلاً: «بأن الاستشراق الإسباني الذي ينتج اليوم، لم يستطع أن يخرق بعد تصورات آسين بلاسيوس للإسلام والمسلمين، ولا منهجيته في تناول هذا الموضوع، بل لعله لم يفكر بعد في ذلك»[40].

توجه الأبواب والفصول الآنفة الذكر، نظام التفكير في الكتاب. ونحن في إعادة ترتيبنا لمحتوياته ولعمليات الاستدلال المنجزة في نصوصه وهوامشه، لا نملك إلا أن نقر لصاحبها بجهد في الكتابة لا يمكن أن ينكر في بناء ما يمكن أن نطلق عليه «مستويات وطبقات التفكير» في الموضوع. وهي تشمل المناحي التالية:

أولاً: المستوى الإشكالي في الكتاب.

ثانياً: المستوى التاريخي.

ثالثاً: المستوى التمثيلي.

رابعاً: المستوى التحليلي المقارن.

ودون الدخول كرَّةً أخرى في تفاصيل لسنا بحاجة إلى التوسع فيها، نرى أنه يكفينا منها أن نذكر بأن طبيعة التحليل والعرض في محاور وفصول الكتاب، أتاحت للكاتب إعادة النظر في إشكاليات الاستشراق الإسباني وفي تمثلاته اللاتاريخية للآخر الإسلامي التي شكلت شروط نشأة هذا الاستشراق ووجوده التاريخي والفكري. وفي شواهد ومحاور الفصول ما يؤكد هذه المسألة تأكيداً.

إن مفارقات الاستشراق الإسباني ناتجة في تقديرنا عن الحصر الذي جعله ينفي زمانية تاريخ الأفكار، ويظل سجين حدود نزعته الفلولوجية، يحده منهج التأثير والتأثر، وتتملكه ثقافة وعقل الكلامية التراثية للعصر الوسيط في مختلف المباحث التي يخوض فيها من دون علاقة تربطه بعقلانية الأزمنة الحديثة.

(40) المصدر نفسه. ص379.

ومن هنا فإننا لا نفهم تماماً، في سياق المرمى البعيد للكاتب، حماسة الدعوة إلى اختيارات منهجية في النقد تستند في مرجعياتها إلى مكاسب الدرس الفلسفي المعاصر وفكر الاختلاف وآليات التفكيك، لإعلان حوار نقدي مع نصوص استشراقية إسبانية مكتفية بمعانقة شتائها الطويل وركودها المتواصل.

إن المفاهيم الفلسفية المعاصرة الموصولة بفلسفة الحداثة وما بعد الحداثة في تركيب النظر النقدي وفي نقد وإعادة بناء أصناف القول والتصورات، تفتح مرجعيات التمركز الغربي للعقل الاستشراقي على آليات التقويض والهدم وتدفع به إلى منطقة الهامش وإخراج الذات[41]. ونحن في إعادة تشريحنا لتصورات وأصول هذا الاستشراق؛ في صورته الإسبانية وعدته المنهجية، لم نستطع أن نتبين في جانبه الإنشائي رجاحته النظرية وكفايته الإقناعية. ومن هنا كانَ بؤسه الفلسفي وعقمه التاريخي[42]

(41) يراجع تحليلنا للغيرية في بحثنا: د. مصطفى حنفي. خطاب الغيرية: الآخر بنية، مجلة أوراق فلسفية العددين الثاني والثالث، يونيو 2001، القاهرة.

(42) مصطفى حنفي، خطاب الغيرية في الفلسفة المعاصرة، مجلة تحديات ثقافية، العدد الثاني، ص57 القاهرة، 2000.